

«الذين لا يكون» لعائده مطرجي ادريس

## معلم جديد في القصة القصيرة

بقلم احمد سعيد محمدي

في اكثر من جو اكثر مما يجب . حتى كادت ان تكون قصة مثل قصص محمد تيمور الرائد قبل اربعين سنة ، عندما كان هذا الفن ما زال وليداً ، وعندما لم يكن امام تيمور ولا اقرانه امثال عيسى عبيد وظاهر لاشين تراث يمكن ان يعتمد ذخيرة اللهم الا المقامة بشكليها القديم والمستحدث . ولقد ادى اتساع الاطار أو قل كسر الحوادث للاطار في هذه الاقصوصة الى ان لا تضي الكاتبه الضاية المطلوبة باللحظة الزمنية التي ارادت تصويرها ، ففي اطار القصة خلجات نفسية مختلفة وحالات متباينة ، منها اهتمام الكاتبه بتصوير : « التزام الكاتب » ، ومنها عدم قدرة المثقف على الاستجابة لمعتقداته لحظة الخطر ، ومنها الشعور الانساني ساعة الفزع ، ومنها ايضا حالة الثورة الشعبية ، او الحرب الاهلية وانعكاساتها على المواطنين .

وبديهى ان هذه مجموعة من القضايا تحتاج الى اكثر من قصة ، ولكن القصة الواحدة - ومهما كان الكاتب او الكاتبه قادرين - تعجز عن ان تضعها في اطار اقصوصة واحدة دون خلخلة بالشكل أو تحطيم لفنية العمل ، ذلك ان « التركيز » - وهو سمة الاقصوصة البليغ - يفترق عندما تتوزع قدرة الكاتب على مجموعة من القضايا في آن واحد وضمن كادر معين لا ينبغي له ان يخرقه .

فالكاتب هنا ، بحاجة الى ان يعبر عن نفسه بدقة متناهية، ويحيث يكون لكل عبارة في اقصوصته وظيفة ضرورية ، مثلما يكون لاي خاطرة عمل عضوي ، فكل ما في القصة القصيرة من وقائع وشخصيات ومعان انما يهدف الى تصوير حدث متكامل واحد يجلو لحظة معينة فكرية او نفسية . فاذا ما اقلت الزمام من يد الكاتب - مثلما حصل في هذه القصة مع عائدة مطرجي - واتسع المدى الذي يجري فيه الحدث ثم تفرغ عن الحدث روافد تحمل انطباعات متباينة أو خواطر متفارقة فقل ان العمل او الاقصوصة قد تعرضت للفشل .

غير ان لهذه القصة فضيلة لا سبيل الى انكارها او التناضي عنها، وهي قدرتها على تصوير ازمة المثقف الثوري الملتمزم بمقدار ما يريد ما واقعا يحيا في اجوائه ، يتفاعل معها ويتنفسها وتهضمها حياته العملية . وفيما لو اردنا اجتياز كتاب « عائدة » من صفحاته الاولى لتوقف قليلا عند كل اقصوصة من اقاصيصه السبع لكان لنا ان نتوقف اولا عند قصتها « دارنا الكبيرة » ثم نتبع ذلك بوقفه عند « الذين لا يكون » القصة التي اخذ الكتاب عنوانه منها .

وسبب ذلك ان « دارنا الكبيرة » هي افضل قصة فسي هذه المجموعة ، وهي التي تركت لدي انطباعات جملني - بعد ان فرغت من قراءة الكتاب - اتجاوز السقطات الفنية في القصص الاخرى الى ما تمثله هذه القصة وارفعه شعاعا في مطلع هذا المقال .

ف « دارنا الكبيرة » هي ما يجب ان تمثل عائدة مطرجي ادريس ،

ميزة عائدة مطرجي ادريس في مجموعتها القصصية « الذين لا يكون » انها تمسك بيد القارئ وتنسب به الى عالم عابق بالحنان الودود والعاطفة الحاذبة . الى عالم شفيق فيه حب ولفة ، وفيه رقة عذبة يبرز منه الاخ والزوج والابنة ، والوطن والقضية والشعب . وتفعل عائدة مطرجي ذلك بتوفيق - في بعض القصص - بين عالم الانسان الخاص وعالمه العام ، وتمازج بين العالمين بحنكة ودربة ، وتضفي عليهما - مع ذلك - جو العقل الذكي فترى الافكار - مثل العواطف الصادقة - تسري منزنة في عروق عالمها لتشهد للذانية انها واحدة من اتفنانات صاحبات القدرة ، اللواتي نهن ميزه المزاوجة بين شكل العمل ومضمونه ، وبين العاطفة والعقل ، وبين ظموح الاسرة وظموح الوطن .

وفي حسابنا ان هذه المحامد هي المعالم القوية التي تمثل شخصية عائدة مطرجي قصاصة ، ونعتقد انها لو فقدت عنصرا من هذه العناصر - وهذا واقع في بعض القصص الاخرى - لكانت مجموعة العيوب الفنية تمثل خطرا اكيدا على الكاتبه وتجعل القارئ الجاد والناقد المخلص يتصرف عن نتائجها .

الا ان عائدة قد استنطعت - من خلال بعض القصص كما قلنا - ان تكون صاحبة سلطة على الانثيين ، وبالتالي ان تفرض نفسها ونساجها كمظهر خليق بالدراسة والاحتفاء .

وعليه نرى ان العيوب الفنية القائمة في مجموعة العمل لا تمثل الخطر القاتل على فنية العمل - كمجموعة - وانما هي خطر جزئي على الكاتبه ان تعالجه بمزيد من الصبر ومجالسة النفس ، وبمزيد من المراقبة الصارمة .

واذا كنا بحاجة الى وضع عنوان للعيوب الفنية عند عائدة مطرجي فاننا بسرعة نختار العنوان التالي : « عيب عدم القدرة على التركيز » ، فهذا العيب يكاد ان يكون قاسما مشتركا لثلاث قصص من المجموعة هي « الموت والكلمة » ، و « بطله جديدة » ، و « كان الصوت يبكي » . فهذه اتقصص اطارها اوسع مما تحتاجه القصة القصيرة ، واحداها تتراكم وتتتابع بشكل يفقد كل قصة قدرتها على الابعاء المركز ، بل ان احداث هذه القصص قد كسرت الشكل الفني للاقصوصة ، فهي قد اعتمدت طريقة السرد على السجية ، بحيث كانت لقطات مختلفة من كل اقصوصة مما يمكن الاستغناء عنه - حتى وان كانت تتمتع بمستوى لائق من الذكاء والانارة - وذلك دون ان تفقد اي اقصوصة ميزتها ولا طابعها الفني .

وفي مجال التخفيض فاننا نود ان نلفت الى قصة « الموت والكلمة » وهي تحتوي على عناصر تشويق كثيرة وعلى افكار طيبة ، ولكنها مبطوطة اكثر من اللازم ، ومستغرقة مدى زمنا ومكانا اكثر مما ينبغي ومتداخلة

الداخلية فيها ، ففي كلاهما ايقاع زخم للنبل العاطفي ، ولصدق الاحاسيس الوطنية .

كما ان الكتابة - بجانب هذا التوفيق كله - قد جعلت الاطار باجمعه يخدم الفكرة ، فلم يكن هنالك حشو ولا ادخال ، ولا استطراد وانما كان « التركيز » سمة واضحة تجلي القصة كلها من خلاله . ومع ان « الكاتب » في العادة يختار عنوان افضل قصصه عنوانا للكتا بوا المجموعة فان عاتدة لم تفلح في اختيار عنوان الكتاب من احسن قصصها ، بل اختارته من قصة تالية لذلك واعني بها القصة الاولى في المجموعة « الذين لا يكونون »

ويبدو ان وجود التجربة الشخصية في هذه القصة قد جعل عاتدة تؤثر هذه القصة - عنوانا على الاقل - على غيرها - كما انها فيما اظن قد انتقلت الى الاسم الكلامع الموحى اثر مما التفتت نحو القيمة الفنية للقصة .

ومهما يكن فان « الذين لا يكونون » لا تخرج عن كونها قصة جيدة فيها ملامح النجاح المطلوبة ، وفيها الصفء الذي يحسه القارئ والناقد مضافا الى ذلك قدرة عاتدة على سرفة فضول او عاطفة من يقرأها ، فهي كما اشرنا تملك قدرة ضخمة على ان تنسج بالقارئ بدون اقحام او جبرية الى عالمها ، بل قل - وفي بعض الاحيان الى منزلها الزوجي - وهناك تتحكم به - بدقة وسياسة - فتعرض عليه شؤونها وقضاياها وما ارادت ان تبلغه امانة وواجبا .

ومع ان هذه القصة دخول الى عالم الطفل البهيج والى عالم الام الداخلي - وهما عالمان تفل فيهما عناصر الاثارة لان الكاتبة تستنبط النفوس اكثر مما تعرض لحركتها - فان الكاتبة قد استطاعت بنفس القدرة التي تملكها ان تدخل بالقارئ الى عالمها البسيط ، وصورته المشاعر من خلال الاحداث . فتأملاتها اذناخية - في عالمي الام والطفلة - لم تكن تقريرية وانما كانت من خلال مجرى الاحداث .

ومما يذكر في مجال التعميم ان الكاتبة قد ابتعدت عن الاجواء المحلية ، فكل القصص تجري في اماكن بلا ملامح ، فليس ثمة اسماء للامكنة التي تجري فيها الاحداث ، وليس ثمة علامات فارقة توضح صفات الاباطل الوطنية او القومية . مما يفقد القصص - جملة - طعمها المحلي او القومي علما اننا لا نريد بالتحلية هنا الاغراق بالتفاصيل الداخلية غير الانسانية للوطن بحيث يفقد العمل عاليته وانما نقصد ان اي عمل يجب ان يبدو انه قد نبع من بيئة معينة تسمه بسماتها دون ان تفقد عناصره الانسانية المشتركة .

واذا استطرادنا - في حساب ما يؤخذ على الكاتبة - فاننا نضيف الى انها صاحبة تجربة محدودة - مع انها ليست كذلك في واقعها - فمعظم القصص تابعة من عالم عاتدة مطرجي البيتي ، ف « البطلنة الصغيرة » رائدة هي ابنتها والكاتب وعالم الكتب - اللذان يدوان في اكثر من قصتين - هما زوجها وعالمها الصييق - الرحيب - ككاتبة ومنتجة . ويشعر من يعرف عاتدة مطرجي ادريس ويعرف زوجها انه قد دخل في كثير من اللقطات الى بيت سهيل ادريس قرب الجامعة العربية وعرف بعض ما تستر جدرانها عن العيون .

الا ان فضيلة كافة هذه القصص - بجانب ما ذكرنا لبعضها - انها قصص نظيفة بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، فهي تعالج مشكلات على صلة حقيقية بعالمنا القومي معالجة ملتزمة متزنة ، وهي تمزج بدرجة بين الحياة الفردية للانسان وحياته القومية ابهي مزج ، كما انها قصص مخلصه للحياة والانسان والقيم الجماعية . ونعتقد ان ميلاد هذه المجموعة محطة طيبة للقصة القصيرة في لبنان يجب ان نتوقف عندها تأملا وتحية . كما وانه يجب دعوة صاحبتها عاتدة مطرجي ادريس الى ان تترك نفسها للكتابة القصصية وان تكف عن الترجمة وسواها فيما لو كانت تأخذ منها الوقت والقدرة .

أحمد سعيد محمدي

وهذا ما يجب ان يشعر به الناقد المنصف او القارئ المهتم . لان اي منها عندما يفرغ من قراءتها سيحس ان الكاتبة قد اعطت فيها كل ما يمكن ان يعطيه قصاص فنان في اقصوصة قصيرة من غير ان يفلت منه المييار الذي تقاس به الاقصوصة . و « دارنا الكبيرة » مع هذا قصة لها وجه ظاهر وسريرة باطنة ، فوجهها وجه الاسرة العادية التي يجب ان تتألف فيما بينها لتصون ارثها الصغير وتحافظ على وحدتها ، وسريرتها تعني قضية الوطن ، والوطن العربي بالذات : كيف يصون نفسه من الغريب ، وكيف يصون نفسه من نفسه ؟ كيف يؤلف بين الجسد الواحد المتناثر ؟

وفي مجال انفصيل - وهو ضروري هنا - فان الاقصوصة تحكي حكاية بيت وارض صغيرة تركهما صاحبهما الى زوجه واولاده واوصاهم ان يحافظوا عليهما ويدخروهما مثلما تدخر الحياة . ثم يموت الوالد فتتولى الام صيانة البيت والارض حتى يفد غريب يحاول ان ينتزع الارض بكياسة ولباقة ويفاوض في ذلك الابن الاكبر فتعرضه امه على عدم الافراط لا بالبيت ولا بالارض الا ان الغريب يذهب الى اشقائه ويعرض الامر عليهم ثم يدب التنازع فيما بينهم حتى يكاد ان يصل الى التقاتل ، منهم من يريد ان يتخلى عن الارض ، ومنهم من يصيبه الحسد من الاخ الاكبر ، ومنهم من يريد ان يكون الحكم الفصل في الامر .

ويضعف التنازع الاخوة نفسيا حتى يكادوا ان يتداحوا فتتدخل الام في اللحظة الحاسمة وتوجه النصل اتى نفسها ، الا ان الابن الاكبر ينتزع النصل منها ويقسم لها بالا يخون العهد ويلتفت بعض الاشقاء نحو شقيقهم ويتردد البعض الاخر ، ويبقى قسم ثالث بعيدا .

وهنا ترتفع مناجاة داخلية تهمس بها نفوس الاشقاء الذين التفوا حول شقيقهم الاكبر : « اننا ندعوكم ، نحن البسطاء فيكم ، ندعوكم يا اخانا الاكبر ، يا من فهمت سر نداء ارضنا فلوحثك شمس صيفها ، وصلبت عضلاتك رياح شتائها المفرور ، كيف تعيد الينا الراحة ، وتحبس الدم من ان يهدر ؟ لقد نمى والدنا سواعدنا لتفتك بالغريب السذي سيسلبنا دارنا ان نحن تفككتنا ، دارنا التي ورثها منذ الازل واورثنا حبا نقيها طاهرا » .

ويتضح ، من غير مباشرة ، ان ارض البيت الصغيرة هي ارض الوطن العربي ، والام هي الامة العربية ، وان الابن الاكبر هو الرائد القومي في شعبنا ، والاشقاء الذين يتخلون عن العهد هم اولئك القادة الذين سقطوا في يد الاستعمار وفي حماة الحسد ، وان الزائر الغريب هو القوى الخارجية التي تحاول ان تفترس ارض الوطن .

والتناسق دقيق هنا وموزون . فقد احسنت الكاتبة الاختيار عندما اخذت هذه الحدودة مكانا وانسانا اطارا لفكرتها عن الوطن . وعندما جعلت البيت الصغير عنوانا وتمثيلا صالحا للوطن الكبير .

الا ان ما تتميز به القصة هو الروح الشيففة العذبة ، روح الانس والحب العظيم .

ويشعر القارئ - بقوة - ان هذه الروح لم تكن في العمل لو لم تكن وراء عاطفة الكاتبة الوطنية الساخنة ، ولو لم يكن وراء احساس الفنان المشع .

ويبدو ان عاتدة مطرجي ادريس - وهي كذلك - تراقب العمل العربي بجوارح « المواطنة » الصادقة ، وبمحافظة الكاتب الملتزم الصادق . والا لم تكن لتستطيع ان تسدل على نفسية القارئ هذا الستار الناعم من الحنان والعاطفة والالفة والرفقة العذبة : فهي قد كتبت هذه القصة - في زمننا - تحت وطأة نبض شعوري وفكري حار لم يتماثل مع اي من نتاجها الاخر . كما وانها - وعلى ما يبدو لنا - لم تفكر في شكل القصة من اجل المحتوى وانما ولد الشكل والمحتوى في لحظة واحدة - وهذا ما يجعل الفنان بالتالي اكثر قدرة على التبليغ والتوصيل . ويجعل القارئ يتقبل عمله باحساس راض ، لانه لم يشمر ان في القصة « تركيبية عقاقيرية » .

وفد اوضح هذا الفيض الشعوري والفكري مقدمة القصة والمناجاة